مِن أُقاصيص الأولين

عرض : د. محمد أحمد خلف الله

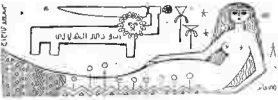

•• قالت جميلة : — حدثتني نشيمة ، وكانت مطبوعة اللسان جميلة الوجه حسنة البيان عجيبة النطق والفرح

قالت : — والله ما أرادني جميل رحمة الله عليه بريبة قط ، ولا حدثت أنا نفسي بذلك منه وان الحي انتجعوا موضعا ، واني لفي هودج لي أسير اذا أنا بهاتف ينشد أبياتا ، فلم أتمالك أن وثبت نفسي وأهل الحي يبطرون ، فجعلت أطلب المنشد فلم أقف عليه ، فناديت أيها الهاتف بشعر جميل ما والله منه أ وأنا أحبه قد مضى نحبه ومضى لسبيله ، فلم يجبني مجيب ، فناديت ثلاثا ، وفي كل ذلك لا يرد علي أحد شيئا

فقال صواحباتي : — أصابك يا نشيمة طائف من الشيطان !

فقلت : — كلا ، لقد سمعت قائلا يقول .

قلن : — نحن معك ولم نسمع

فرجعت فركبت مطيتي وأنا حيرى والهة العقل كاسفة البال ، ثم سرنا فلما كان في الليل اذا ذلك الهاتف يهتف بشعر جميل ، ذلك الشعر عينه ، فرميت نفسي وسعيت الى الصوت ، فلما قربت منه انقطع

فقلت : — أيها الهاتف ، ارحم حيرتي وسكن سري بخبر هذه الابيات ، فان لها شأنا ، فلم يرد علي شيئا . فرجعت الى رحلي فركبت وسرت وأنا ذاهلة العقل ، وفي كل ذلك لا يخبرني صواحباتي أنهن سمعن شيئا

فلما كانت الليلة القابلة نزلنا واخذ الحي مضاجعهم ونامت كل عين ، فاذا الهاتف يهتف بي ويقول : —

يا جميلة : ابكي الى أسك مما تجدين

فاستطلعت نحو الصوت ، فاذا شيخ كان من رجال الحي ، فسألته عن اسمه ونسبه .

فقال : — دعي هذا وحدثي فيما هو أهم عليك .

فقلت له : — وان هذا لما يهمني .

قال : — اقصصي ما قلت لك .

فقلت له : أأنت المنشد الأبيات ؟

قال : نعم .

قلت : — فما خبر جميل ؟

قال : — لم أفارقه وقد قضى نحبه وصار الى حفرته رحمة الله عليه .

فصرخت صرخة أفزعت منها الحي ، وسقطت لوجهي مغشيا علي ، فكأن صوتي لم يسمعه أحد ، وبقيت سائر ليلتي ، ثم أفقت عند طلوع الفجر وأهلي يطلبوني فلا يقفون على موضعي ، ورفعت صوتي بالعويل والبكاء ورجعت الى مكاني .

فقال لي أهلي : — ما خبرك ، وما شأنك ؟

فقصصت عليهم القصة .

فقالوا : — يرحم الله جميلا .

واجتمع نساء الحي وأنشدتهن الأبيات فأسعدنني بالبكاء ، فأقمن كذلك لا يفارقنني ثلاثا ، وحضر الرجال أيضا وبكوا ورثوه وقالوا كلهم : يرحمه الله فانه كان عفيفا صدوقا .

فلم اكتحل بعده بالاثمد ، ولا فرقت رأسي بمشط ، ولا دهنته الا من صداع خفت على بصري منه ، ولا لبست خمارا مصبوغا ولا ازارا ، ولا أزال أبكيه الى الممات .

•• لما بلغ الوليد بن يزيد بن عبد الملك أن ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك قد أوغر عليه الصدور ، وشرد عنه القلوب ، ونازعه رداء ملكه ساعيا في هلكه ، استوحش من بطانته واحتجب عن سماره .

وفي عشية من عشاياه وحشته دعا خادما له ، وقال له : —

انطلق متنكرا عقب بعض الطرق وتأمل من تمر بك من الناس ، فاذا رأيت كهلا رث الهيئة والملبس يمشي مشيا هونا وهو مطرق فسلم عليه ، وقل في أذنه : ان أمير المؤمنين يدعوك ، فان أسرع الاجابة فأتني به ، وان تلكأ أو عارض واستراب فدعه واطلب غيره حتى تأتيني برجل على هذا الشرط الذي ذكرت لك .

فانطلق الخادم فأتاه برجل تنطبق عليه جميع هذه الشروط ، فلما دخل الكهل على الوليد ابن يزيد حياه بتحية الخلافة وقام ، فأمره الوليد بالدنو والجلوس ، وأمهله الى أن ذهبت روعته وسكن جأشه ثم أقبل عليه فقال له : —

اتحسن مسامرة العلماء ؟

فقال الكهل : ــ نعم أحسنها يا أمير المؤمنين .

فقال له الوليد : ــ ان كنت تحسن المسامرة فاسمرنا فيها ما هي ؟

فقال الكهل : ــ السامرة أخبار لمحب ، وأحداث لمعتبر ، ومعاورضة فيما يحب ويليق .

فقال له الوليد : ــ أحسنت أيها الرجل لا أزيدك امتحانا ، فقل نصحت لقولك .

فقال الكهل : ــ يا أمير المؤمنين ، ان المسامرة سمان لا ثالث لهما . أحدهما أخبار بما يوافق خبرا مسموعا ، والثاني أخبار بما يوافق خبرا مشهورا . واني لم أسمع محضرة أمير المؤمنين حديثا فأحدثوا على مثاله ، ولا أقترح على أمير المؤمنين سلوك طريقة فأسعو نحوها والزم أسلوبها .

فقال له الوليد : ــ صدقت وها نحن نقترح عليك ونرسم لك رسما لتشبهه . أما قد بلغنا أن رجلا من رجالنا سعى فيما يصم ملكنا فأمر بسميه وشق ذلك علينا وبلغ منا ، فهل تسمى ذلك الى علمك ؟

فقال الكهل : نعم .

فقال الوليد : ــ قل الآن على حسب ما سمى اليك منه ، وعلى حسب ما ترى من التدبير فيه .

فقال الكهل : ــ يا أمير المؤمنين انه بلغني أن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لما ندب الناس لقتال عبد الله بن الزبير ، وخرج بهم متوجها الى مكة حرسها الله تعالى ، استصحب عمرو بن سعيد ابن العاص وكان عمرو بن سعيد قد انطوى على دخل نية ، وفساد طوية ، وطماعية في نيل الخلافة وكان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد فطن لذلك الا أنه كان يتقي عليه لتأكد حرمته وأوامر رحمه .

فلما فصل أمير المؤمنين من دمشق وسار عنها أياما واستمر به السير ، تمارض عمرو بن سعيد واستأذن أمير المؤمنين عبد الملك في العود الى دمشق فأذن له .

فلما دخل عمرو بن سعيد دمشق صعد المنبر فخطب الناس خطبة نال فيها من الخليفة ودعا الناس الى خلعه ، فأجابوه الى ذلك وبايعوه ، فاستولى على دمشق وحصن سورها وحمى حوزتها وسد ثغورها وبذل الرغائب .

فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان وهو متوجه الى ابن الزبير ، وبلغه مع ذلك أن والي حمص قد نزع يده من الطاعة ، وأن الثغور قد تسوفوا للخلاف عليه ، فعرج على وزرائه وبيده محضرة يقرب بها عطفه ، فأطلعهم على ما بلغه وقال لهم : ــ

هذه دمشق دار ملكنا قد استولى عليها عمرو بن سعيد ، وهذا عبد الله بن الزبير قد استولى على الحجاز والعراق ومصر واليمن وخراسان ، وهذا النعمان بن بشير أمير حمص ، وزفر بن الحرث أمير سرين ، ونابل بن قيس أمير فلسطين ، قد نزعوا أيديهم من الطاعة ودعوا الناس لابن الزبير ، وقد تشوف أهل الثغور للخلاف ، وهذه المضرية سيوفها على عواتقها تطالبنا بقتلى المرج .

فلما سمع وزراؤه مقالته ذهلت عقولهم وعلموا أن لا مفر فنكسوا رؤوسهم ولم ينطقوا .

فقال لهم عبد الملك : ــ لم لا تنطقون ؟ أحضروا غناءكم فهذا وقت الحاجة اليكم .

فقال له أحدهم : ــ أي غناء عندنا في هذا . ووددت والله أني كنت حرباء على عود من أشجار تهامة حتى تنقضي هذه الفتن .

قال الكمي — فلما سمع عبد الملك مقالة صاحبه علم أن لا سبيل عند ورائه ، فقام عنهم ، وأمرهم بلزوم موضعهم ، وركب من فوره منفرداً ، وأمر جماعة كثيفة من غلمان قومه وفرسانهم أن يركبوا في السلاح ويتبعوه متبعدين عنه بحيث يرون اشارته أن أشار لهم

سار عبد الملك واتبعه القوم على ما رسم لهم ، فلم يزل سائراً حتى انتهى الى شيخ كبير السن مشيخ العمر سيره الحالم وهو يجمع السماق — فسلم عليه عبد الملك وأسمعه حديث خفيف ثم قال له : —

أيها الشيخ : الك علم بنزول هذا العسكر ؟

فقال الشيخ : — ما عسى أنهم نزلوا بموضع كذا

فقال عبد الملك : — هل سمعت شيئاً مما يقول الناس في أمره ؟

فقال الشيخ : — ما سؤالك عنه ؟

فقال عبد الملك : — أني أردت اللحاق به والدخول في أصحابه والتعرض للحظوة عنده .

فقال الشيخ : — أني أراك أريباً وصيا ، وأحسبك حسيبا سريا ، فهل تحب أن أنصح لك فيما أنت قاصده ؟

فقال عبد الملك : — ما أحوجني الى ما تقول

فقال الشيخ : — انه ينبغي لك أن تصرف نفسك عن هذا الأمر الذي ترغب اليه فان الامير الذي أنت قاصده قد انحلت عرى ملكه وبانت انتباهه واضطربت أموره ، وان السلطان في حال اضطراب أموره كالبحر في حال هيجانه لا ينبغي أن تقرب .

فقال عبد الملك : — أيها الشيخ ، ان الحكمة لم تدع لي مقالة تعصي في كل ما ترغب اليه ، واني أحدها تخرج الى سمة هذا الأمير نزاعاً شديداً ، ولابد لي من ذلك ، فهل لك أن تحسن الي فتخبرني بما تراه من الرأي لهذا الأمير في تدبير هذه الحطوب التي دهمته لأعرض ذلك الرأي عليه ، وأتحف به عنده ، فلعله أن تكون سبباً لقربي منه .

فقال الشيخ : ان حكمة الله وعزته لمقصان بحجب العقول والآراء من النفوذ في بعض النوازل التي لا تتصل بها العقول ولا تهتدي الى صواب تدبيرها الرأي ، واني أكره أن أرد مسألتك بالخيبة فيما أنا أقول فيما سألتني ولا أمضي به حتى رضيتك وان كنت لا أثق بمضي فيه لأن الخطب عظيم جداً ، والخطر فيه متناهٍ عظمه .

فقال له عبد الملك : — قل جزاك الله خيراً فاني لأرجو أن يسددك الله ، ويرشدني بك الى الصلاح .

فقال الشيخ : — ان هذا الخليعة خرج لمحاربة عدوه فظهر من مشيئة الله سبحانه أنه لا يريد ما قصده . والدليل على أن الله لم يرد قصده لمحاربة ابن الزبير انه عطفه عن التمادي مما أحدثه في دار ملكه من وثوب عمرو بن سعيد على مصره ، واستفساده لرعيته ، واستيلائه على بيوت أمواله وسرير خلافته . واني مشير عليك تتفقد حال هذا الامير وانتظار ما يكون منه فان رأيته قد تمادى فيما خرج له واصر على قصد ابن الزبير فاعلم انه مخذول فاحشة — وانما كان مخذولاً لأن الله سبحانه وتعالى قد اظهر في حكمه أمراً يقطعه من التمادي لما خرج له ، فأبى الا لجاجه . وان رأيته قد رجع من حيث جاء ، وترك ما كان قصد له وخرج في طلبه ، فارج له السلامة لأنه مستقبل — والله سبحانه أهل ان يقبل من استقاله ويرحم من رجع اليه .

فقال له عبد الملك : — يا شيخ . وهل رجوعه الى دمشق الا كمسيره الى ابن الزبير ؟ اذ كان قد ظهر من حكمة الله تعالى ومشيئته أن يقض منه قلوب رعيته الذين بدمشق من موالاته ، وبسط أيديهم بالبيعة لغيره ، فمصيره الى ابن الزبير كرجوعه الى عمرو بن سعيد لأن كل واحد منهما حاصل على مملكة منيعة ، ورعية مطيعة ؟

فقال الشيخ : ـ ان الذي اشكل عليك لواضح بين ، وها انا ازيل اللبس عنك : ان عبد الملك اذا قصده ابن الزبير كان في صورة ظالم لان ابن الزبير لم يسطه طاعة قط ، ولا وثب له على مملكة ، وهو اذا قصد عمرو بن سعيد كان في صورة مظلوم لان عمرو بن سعيد نكث بيعته وخان أمانته والعهد دينه وحملهم على النكث والغدر ، ووثب على دار ملك لم يكن له ولا لابيه بل كان لعبد الملك ولأبيه من قبله . وعمرو بن سعيد عليه عقد وله عصبية ـ وامه كان يقال سمي العصبة مهزول ، ووالى العسكر معزول .

وقد كان عبد الملك في مخرجه الى محاربة ابن الزبير عاملا فيما يريد به عن عمرو بن سعيد ، وبقاء الملك في اهل بيته . فلما سمع ما عرفه الشيخ من المثل ، واستمر فيما أودعه من الحكم سر بذلك سرورا شديدا لم أعمل على الشيخ فقال : ـ

جزيت خيرا فقد عظمت بذلك عندي واني لاوثر أن تجعل بيني وبينك موعدا وتذكر مكانك لالحاقك به بعد يومي هـذا .

فقال الشيخ : ـ فما الذي تريد بذلك .

فقال عبد الملك : ـ اني أزمل ان اسمع رأيك عند الامير واكافئك على ما كان منك .

فقال الشيخ : ـ اني اعطيت الله تعالى عهدا الا أتحمل منة لسخيل .

فقال له عبد الملك : ـ ومن اين علمت نحلي ؟

فقال الشيخ : ـ كيف لا اعلم نحلك وقد ارحلت حسبلتي ومكاني مع القدرة على تحصيلها فما علتك لو وصلتني ببعض ما ارى عليك من السلاح والنزه البهية ؟

فقال له عبد الملك : ـ أقسم بالله لقد ذهب ثم نزع سيفه فقال : اقبل مني سيفي هـذا ولا تخدع عنه فان قيمته عشرون ألف درهم .

فقال الشيخ : ـ اني لا اقبل صلة فاعل . فدعني وربي الذي لا يبخل ولا يلحل فهو حسبي .

فلما سمع عبد الملك مقالته علم فضله في دينه وقال له : ـ

اني انا عبد الملك فاقصدني وارفع الي حوائجك .

فقال الشيخ : ـ وانا عبد الملك فهلم نرفع حوائجنا الى من انا وانت له عبدان .

فانطلق عبد الملك فعمل برأي الشيخ فأنجح .

فلما سمع الوليد ما أخبره به ذلك الكهل استرجح عقله واستظرف ادبه وساله عن نفسه فسمى له وانتسب . فلم يعرفه الوليد واستحيا منه .

ثم قال الوليد : ـ ان من جهل مثلك من رعيته لضيع .

فقال له الكهل : ـ يا امير المؤمنين ، ان الملوك لا تعرف الا من تعرف اليها ، ولزم أبوابها .

فقال الوليد : ـ كلا والله فلا توسعنا عذرا لا نستحقه . فأمر له بصلة معجلة ، وعهد اليه في ملازمة بابه عهدا . فكان يسمع من ادبه وحكمته الى ان كان من امر الوليد ما هو مشهور .